الرحالة الألمانى أولريش جاسبر سيتزن
وزيارته لمصر عام ١٨٠٧(*)

أ.د. وجيه عبد الصادق عتيق
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية
الآداب ـ جامعة القاهرة

الملخص

غامر الرحالة الألمانى أولريش جاسبر سيتزن بعد طول تردد بالقدوم إلى مصر فى منتصف عام ١٨٠٧ أثناء رحلته الثالثة والآخيرة إلى الشرق الأدنى. وعلى الرغم من دراسته للطب إلا أنه كان شديد الولع بالحضارات الشرقية والمصرية القديمة منها بصفة خاصة. كما كان مولعًا بجمع المخطوطات والمقتنيات الأثرية من كافة بلدان الشرق الأدنى، وحملها معه أو إرسالها مع طرف آخر إلى مدينته جوتا فى منطقة سكسونيا الألمانية. وقد ترك سيتزن ثروة كبيرة من المذكرات والخطابات الشخصية، وكذلك مخطوطات وآثار شرقية ومصرية قديمة، وجميعها مودعة حاليًا فى مكتبة بلدية جوتا، وهى التى اعتمدنا عليها فى كتابة هذه الدراسة.

قضى سيتزن فى مصر حوالى العامين، حيث غادرها فى منتصف عام ١٨٠٩ مع موسم الحج لزيارة مكة والمدينة متنكرًا بين الحجاج، ومتقمصًا شخصية حاج عراقى شيعى. وخلال فترة إقامة هذا الرحالة فى مصر تجول بين مدن وقرى مصر السفلى فقط، دون أن يتمكن من زيارة مصر العليا، لعدم استقرار الحالة الأمنية هناك، والمناوشات المستمرة بين قوات محمد على والمماليك المناوئين له حتى ذلك الوقت.

وعلاوة على ملاحظاته حول المجتمع المصرى فى القاهرة والدلتا، دون عدة مقترحات لمشاريع تساعد على تحسين حالة سكان القاهرة، كما كتب عن بشائر التحديث، الذى أخذ محمد على فى إنجازها، وعبر عن أسفه لما شاهده من سوء معاملة المرآة المصرية من وجهة نظره. وقد انتهت حياة سيتزن نهاية مؤسفة فى اليمن عندما أمر الإمام آنذاك رجاله بقتله فى ظرف لفها كثير من الغموض عام ١٨١١.

(*)**مجلة المؤرخ المصرى، عدد يناير ٢٠٢٤، العدد الرابع والستون.**

Abstract:

The German traveler Ulrich Jasper Seetzen ventured after long hesitation to come to Egypt in the middle of 1807 during his third and last trip to the Near East. Despite his studies of medicine, he was very fond of the eastern and ancient Egyptian civilizations in particular. He was also fond of collecting manuscripts and archaeological artifacts from all countries of the Near East, and carried them with him or sent them with another party to his city Gotha in the German region of Saxony. Seetzen left a large wealth of his personal diaries and letters, as well as ancient Egyptian and Eastern manuscripts and antiquities, all of which are currently deposited in the Gotha Municipal Library, which we relied on in writing this study.

Seetzen spent about two years in Egypt, when he left in the middle of 1809 with the Hajj season to visit Mecca and Medina, disguised among the pilgrims as an Iraqi Shiite pilgrim. During the period of this traveler's stay in Egypt, he wandered between the cities and villages of Lower Egypt only, without being able to visit Upper Egypt, due to the instability of the security situation there and the continuous skirmishes between Muhammad Ali's forces and the Mamluks who opposed him until that time. In addition to his observations about the Egyptian society in Cairo and the Delta, without several proposals for projects that help improve the condition of the residents of Cairo, he also wrote about the signs of modernization, which Muhammad Ali took to implement, and expressed his regret for what he witnessed of the mistreatment of Egyptian women from his point of view. Seetzen's life came to an unfortunate end in Yemen when the imam ordered his men to kill him in a very chaotic circumstance in 1811.

الدراسة:

أدت الطبيعة السمحة للشعب المصرى، والتنوع الحضارى لآثار البلاد، وتميز الموقع الجغرافى إلى جعل مصر قبلة لجل الرحالة القادمين للشرق الأدنى من أوربا عبر التاريخ. كما أن أخبار الحملة الفرنسية فى مصر، التى تم تداولها على نطاق واسع فى كافة أنحاء القارة الأوربية منذ عام ١٧٩٨ أثار شغف كثير من الرحالة الأوربيين المعاصرين لزيارة مصر، ومنهم الألمان.

إلا أن عجز قوات هذه الحملة عن فرض سيطرتها على أنحاء الأراضى المصرية، واستمرار حالة الحرب بين هذه القوات من ناحية والمماليك والعثمانيين والإنجليز والشعب المصرى من ناحية آخرى، وكذلك استمرار حالة عدم الإستقرار لعدة سنوات فى أعقاب أنسحابها من مصر، حال كل ذلك دون قدوم هؤلاء الرحالة الى مصر حتى عام ١٨٠٧ تقريبًا، على الرغم من محاولة البعض تلمس الحالة الأمنية من خارج حدودها الشرقية قبل ذلك العام.

ويعد أولريش جاسبر سيتزن (١٨١١.١٧٦٧) Ulrich Jasper Seetzen من بين أوائل ممن زار مصر من الرحالة الألمان فى مطلع القرن التاسع عشر، وعلى وجه التحديد فى منتصف عام ١٨٠٧. وعلى الرغم من أن سيتزن انطلق برًّا من بلدته مدينة جوتا Gotha (*) التابعة لتورنجن Thüringen فى سكسونيا السفلى والواقعة فى الشرق الجغرافى من الأراضى الألمانية، فى رحلتين سابقتين فى اتجاه الشرق الأدنى والدولة العثمانية منذ عام ١٧٩٩، إلا أنه لم يتخط فى رحلتيه تلك حدود مصر الشرقية مع فلسطين، على الرغم من وصوله الى أطراف شبه جزيرة سيناء فى رحلته الثانية أواخر عام ١٨٠١، وذلك بسبب إضطراب الأحوال الأمنية فى مصر خلال تلك الفترة. وفى رحلته الثالثة إلى الشرق الأدنى تبدلت نوعا ما الأحوال الأمنية فى مصر مع تولى محمد على الحكم فيها عام ١٨٠٥، مما شجعه على زيارتها فى منتصف عام ١٨٠٧[١].

ينتمى سيتزن إلى أسرة ألمانية من الطبقة الوسطى، وتمتلك ثروة عقارية

وأرضًا زراعية فى منطقة جوتا، ودرس الطب وعلوم الطبيعة فى جامعة جوتنجن. وعلى الرغم من أنه كان يملك فرصة تحقيق طموحه المهنى والعملى، والارتقاء إلى مصاف أرقى الوظائف فى موطنه، إلا أنه كان مغرما بالشرق الأدنى، الأمر الذى جعله يترك كل هذا ويفضل الترحال والمغامرة سائرًا على خطى كارستن نيبور، الذى قرأ له وتأثر بكتاباته كثيرًا، ولذا التحق في عام ١٧٨٩ بأكاديمية الدراسات الشرقية بجامعة برلين لدراسة اللغتين العربية والتركية، وهناك التقى بصديقه جوزيف فون هامر-Joseph Von Hammer Purgstall، الذى كان يدرس أيضا اللغات الشرقية فى نفس تلك الأكاديمية، حيث جمع بينهما الاهتمام بدراسة بالشرق وحضاراته فى صداقة وطيدة[٢].

وقد ترك سيتزن مادة علمية خصبة عن رحلاته إلى الشرق الأدنى ومصر، وهى التى عليها اعتمدنا عليها فى إعداد هذه الدراسة، وهى عبارة عن مجموعات قطع أثرية ومخطوطات مختلفة وتقارير وخطابات بخط يده، وهى محفوظة فى محافظ داخل ثلاثة مجلدات ضخمة، ومودعة بمكتبة قصر فريدن شتاين مقر بلدية مدينة جوتا بألمانيا الاتحادية حاليًا، وجميعها تحت رقم ٤٠٠/١٦٣.

ولاسم سيتزن سمعة علمية طيبة فى كل ألمانيا وفى مدينة جوتا بصفة خاصة، حتى يشار إلى هذه المدينة على أنها "مدينة سيتزن"، وذلك بفضل مغامراته فى الشرق الأدنى، ومجموعته الأثرية وخاصة المصرية منها، وذلك الكم الهائل من المخطوطات التى بلغت ٣٥٠٠ مخطوطة باللغات العربية والتركية والفارسية، والتى جمعها وجلبها خلال رحلاته من محتلف بلدان الشرق الأدنى، والمعروضة حاليًا فى قصر فريدن شتاين Schloss Friedenstein بمدينة جوتا(*)، وتذكر مشاهديها بهذا الرجل ورحلاته المثيرة فى تلك المنطقة، كما تعود هذه الشهرة الى وفاة سيتزن المأساوية فى اليمن عام ١٨١١، على النحو الذى سنأتى لذكره لاحقًا.

وبالإضافة الى مجموعة سيتزن الأثرية وأوراقه الشخصية المحفوظة فى قصر فريدن شتاين بمدينة جوتا، هناك أيضًا عددٌ من المخطوطات الشرقية

التى جلبها سيتزن معه من بلدان الشرق محفوظة أيضًا فى مكتبة بلدية أولدنبورج Oldenburg التابعة لساكسونيا السفلى فى ألمانيا الاتحادية.

وتعد كل هذه المحفوظات لسيتزن منهلًا لا ينضب من المعلومات القيمة للباحثين والمهتمين بالدراسات الشرقية، لما تقدمه من معلومات ثرية عن مشاهداته فى تلك البلدان. صحيح أن مجموعات سيتزن الأثرية وفى مقدمتها المصرية القديمة منها لا ترقى إلى ما تحتويه باريس أو لندن وبرلين وغيرها من كبرى المدن الأوربية والأمريكية من مقتنيات شرقية، إلا أن محتويات مدينة جوتا بصفة خاصة تجعلها تفاخر بما جلبه سيتزن إليها من ثروة علمية قيمة، الأمر الذى جعلها قبلة للمهتمين بالدراسات الشرقية منذ وقت مبكر من القرن التاسع عشر، ورفعت كثيرا من اسم وقدر هذه المدينة ومكانتها الثقافية بين المدن الأوربية.

ولحفظ هذه الثروة الثقافية بمدينة جوتا والتعريف بقيمتها العلمية، قام المستشرق الألمانى الكبير فيلهلم بيرتش Wilhelm Pertsch خلال الفترة من عام١٨٥٩ وعام ١٨٩٣ بحصر هذه الثروة وتبويبها في سجلات ونشرها فى سبعة أجزاء. وبفضل هذه السجلات تمكنت مدينة جوته من استعادة ثروتها القيمة تلك عام ١٩٥٦ من الاتحاد السوفيتى، بعد أن كانت السلطات السوفيتية قد استولت عليها عام ١٩٤٦ فى أعقاب غزو الجيش السوفيتى لأراضى ألمانيا، وإحكام السيطرة على ألمانيا الشرقية مع نهاية الحرب العالمية الثانية.

وكما سبقت الإشارة، كان سيتزن قد بدأ أولى رحلاته إلى الشرق الأدنى بصحبة صديقه النمساوى جوزيف فون هامر فى آواخر عام ١٧٩٩، حيث وصلا فى هذه الجولة الأولى لسيتزن إلى القسطنطينة عاصمة الدولة العثمانية، وتجولا معًا فى أنحاء الأناضول. وفى الرحلة الثانية الى الشرق الأدنى وصل سيتزن الى الأراضى العثمانية منتصف عام ١٨٠١، واستمر فى تجواله بمفرده حتى وصل إلى بلاد الشام، وزار كبرى مدن سوريا، وتقدم فى تجواله هذا حتى وصل إلى الأطراف الشرقية لشبه جزيرة سيناء، التى وصلها فى نوفمبر من عام ١٨٠١، دون أن يتوغل هذه المرة فى الأراضى المصرية[٣].

وبالإضافة إلى مجموعات سيتزن القيمة، لعب أيضًا النمساوى جوزيف فون هامر دورًا كبيرًا، ومنذ وقت مبكر من القرن التاسع عشر، في تعريف مثقفى البلدان الناطقة بالألمانية والمهتمين بدراسة البلدان الشرقية بحضارات هذه البلدان. كما يعد هامر بما نشرة من مقالات وتقارير عن رحلته إلى مصر عام ١٨٠٠ رائدًا لكل من جاء من بعده إليها من الرحالة الألمان فى القرن التاسع عشر.

فقد جاء هامر بصفته دبلوماسيًّا نمساويًّا إلي مصر فى منتصف عام ١٨٠٠ فى ظرف تاريخى واستثنائى للغاية، وبتكليف من السلطات العثمانية، كمترجم بصحبة قوات البحرية البريطانية، التى وصلت لمصر تحت قيادة السير وليام سيدنى سميث Sir Sydney Smith لمشاركة القوات العثمانية فى الضغط على قوات الحملة الفرنسية لإجبارها علي الخروج من مصر. ونزل هامر مع الإنزال البحري لهذه القوات البريطانية على سواحل مدينة رشيد، وعايش فى عام ١٨٠١ الأشهر الأخيرة لتواجد القوات الفرنسية فى مصر، بل وشارك في مفاوضات انسحاب هذه القوات من الأراضى المصرية، وذلك لبراعته فى الترجمة بين اللغات التركية والإنجليزية والفرنسية. وبعد اتمام هذا الانسحاب تجول هامر فى مدن الوجه البحرى وزار مدينة القاهرة وشاهد الأهرامات ومنطقة سقارة وجمع بدوره خلال تجواله كثيرًا من المخطوطات والبرديات وعددًا من قطع الأثار المصرية القديمة. ولم يتمكن هامر من زيارة الوجه القبلى لعدم استقرار الأحوال الأمنية فيه آنذاك، ثم غادر مصر أواخر عام ١٨٠١ إلى لندن مع سيدنى سميث.

وكما سبقت الإشارة، أدى عدم استقرار الأوضاع الأمنية فى مصر فترة تواجد الحملة الفرنسية على أرضها، وتكرار القلاقل الداخلية، وتعدد ثورات المصريين على الفرنسيين، والمناوشات المستمرة بين قوات هذه الحملة والمماليك، والحملات العثمانية والبريطانية المتكررة والساعية لإخراج هذه الحملة من مصر، الى عدم قدوم أى من الرحالة الأوربيين والألمان إلى مصر. وحتى بعد انسحاب قوات الحملة الفرنسية، لم تستقر الحالة الأمنية فى مصر،

بسبب الاقتتال بين العثمانيين والمماليك من ناحية، والإقتتال بين فرق المماليك بعضهم البعض من ناحية آخرى، الآمر الذى حال دون تقدم الرحالة الألمانى سيتزن الى داخل الأراضى المصرية فى المرتين السابقتين.

إلا أن توقيت رحلة سيتزن لمصر عام ١٨٠٧، فى خضم رحلته الثالثة الى الشرق الأدنى، تعد فى غاية الأهمية، لأنها جاءت فى بدايات عصر محمد على، وتزامنت مع السعى الدؤوب لهذا الباشا لفرض الأمن والنظام، والقضاء على القوى المناوئة له فى مصر، وبدء اهتمامه بتحديث المجتمع المصرى. ومن هنا تقدم لنا مشاهدات هذا الرحالة الألمانى ورؤية للأوضاع فى مصر آنذاك مرآة صادقة لتلك الأوضاع، كما تقدم لنا مادة علمية غنية بالمعلومات من شاهد عيان لتلك الفترة المهمة من تاريخ مصر الحديث(٤).

من ناحية أخرى جرت رحلات سيتزن الثلاث إلى الشرق فى وقت كانت بلدته جوتا وأوربا كلها تمر بتحولات كبرى بسبب الحروب النابوليونية فى أوربا عامة وعلى الأراضى الألمانية خاصة، الأمر الذي ترتب عليه تقلب تبعية منطقة سكسونيا السفلى بين ثلاث قوى أوربية خلال فترة زمنية قصيرة(٥)، كما ترتب على هذا كله تدهور حالة السكان فى مدينة جوتا. وهذا يفسر لنا بقاء سيتزن بعيدا عن وطنه ومتجولًا فى بلدان الشرق الأدني فترات طويلة نسبيًا، مثله فى ذلك مثل كثير من الألمان غير المتعاونين مع الفرنسيين وأتباعهم. وكان سيتزن يتحين الفرصة ليعود لبلدته فقط عندما تكثر أحماله بما جمعه من مقتنيات تراثية، وعندما يخشى عليها من الضياع. وبمجرد أن يخزن سيتزن هذه المقتنيات داخل منزل أسرته ويطمئن على أنها أصبحت فى مكان آمن، كان يغادر مرة أخرى بعد فترة وجيزة بلدته جوتا في اتجاه الشرق الأدنى(٦).

وبالإضافة إلى دراسته للغات الشرقية بجامعة برلين، وحتى يكتسب فنون الترحال مبكرًا، قام سيتزن عام ١٧٩٠ بمرافقة الرحالة الألمانى ألكسندر فون هومبلت Alexander Von Humboldt (*) فى رحلة استكشافية فى بلدان غرب أوروبا. وحتى يؤهل نفسة جيدا لرحلاته فى الشرق الأدنى، التحق سيتزن عام ١٧٩٣ بمعهد العلوم الطبيعية فى كل من جامعتى برلين Berlin

ومدينة يينا Jena. من ناحية أخرى تابع سيتزن أيضًا أخبار مصر من خلال صديقه الرسام فريدريش هورنيمان Friedrich Hornemann، الذى جاء إلى مصر فى أغسطس من عام ١٧٩٨ وقابل بونابرت فى القاهرة، ووجد تشجيعًا منه للبقاء فى مصر، حتى إنه انضم لمجموعة علماء المجمع العلمى بالقاهرة، ومارس نشاطه فى الرسم معهم لعدة أشهر، لكنه قرر مغادرة مصر لعدم استقرار الأوضاع بها، وعاد فى أوائل عام ١٧٩٩ إلى موطنه فى ألمانيا، وسرد لسيتزن ما شاهده في مصر، وحدثه عن أحوالها السياسية والأمنية(٧).

وفى برلين اندمج سيتزن مع جماعة من أقرانه، كانت مُغرمة بالشرق ومهتمة بدراسة حضاراته، وشاركه من هذه الجماعة عددٌ من الأصدقاء ممن تطلعوا مثله للإتصال بالمجتمعات الشرقية، وحلموا بالتنقيب عن آثار هذه المجتمعات، بإعتبارها جزءًا من الحضارة الإنسانية، التى تتطلب التضحية بكل ما هو غالٍ ونفيس من أجل فك طلاسمها.

وهذا يفسر لنا اعتماد سيتزن الأكبر فى تمويل مُعظم تكاليف رحلاته على دخل أسرته من ممتلكاتها العقارية فى منطقة جوتا، والتى كانت تُرسلها إليه بحوالات ماليه بين الفينة والآخرى وفى بلدات ومحطات تجارية محدده سلفًا فى آثناء رحلته(٨) (*). وبالإضافة الى تمويل أسرته له، حصل سيتزن أيضًا على مساندة مالية محدودة لرحلته التجريبية الأولى الى الشرق الأدنى عام ١٧٩٩ من دوق منطقة جوتا، الذى اهتم كثيرا بعد مقتله [سيتزن] فى اليمن عام ١٨١١ بمقتنيات هذا الرحالة الثمينة التى جلبها من بلدان الشرق إلى بلده جوتا، وبما تركه من أوراق وخطابات ويوميات، حيث عمل هذا الدوق على حفظ هذه المقتنيات وتأمينها فى متحف مكتبة بلدية المدينة بقصر فريدن شتاين .

ومن هنا؛ هناك وجهتا نظر حول الدوافع التى حركت سيتزن للقيام برحلاته إلى الشرق الأدنى. وتتحدث وجهة النظر الأولى عن أن هذه الدوافع كانت ذاتية وبرغبة شخصية منه؛ لأنه كان عاشقًا للشرق، ومغامرًا من الطراز الأول بالسليقة. إلا أن المصادر التى إعتمدنا عليها تكشف لنا عن وجهة نظر

ثانية تتحدث عن أن دوق منطقة جوتا أرنست الثانى Herzog Ernst II ، كلفه عام ١٧٩٩ بجمع ما يستطيع جمعه من آثار الحضارات الشرقية القديمة، بغرض إنشاء متحف لها فى قصر فريدنشتاين فى مدينة جوتا، لكى يفاخر هذا الدوق بمتحف مدينته بين المتاحف الأوربية، وبناءً عليه ساعده أرنست الثانى ماليًا فى رحلته الأولى عام ١٧٩٩، ثم ساعده ماليًّا أيضًا خلال الفترة من عام ١٨٠١ وحتى عام ١٨١١ على نحو محدود إبن ووريث أرنست الثانى فى الإمارة الدوق أوغست Herzog August ، بعد وفاة والده عام ١٨٠١[٩] (*). ومن هنا نخلص إلى أن الدوافع التى حركت سيتزن للقيام برحلاته الى الشرق الأدنى جمعت بين الرغبة الشخصية، بالإضافة إلى تحفيز دوق جوتا المالى له.

وعلى أية حال قام سيتزن بكل مغامراته فى الشرق الأدنى بدون آى حماية عسكرية، ولذا فإن جهوده فى صبر أغوار بلدان الشرق الأدنى وجلب الآثار منها لا يمكن مقارنتها بجهود علماء الحملة الفرنسية فى مصر، الذين تمتعوا فى الحقيقة خلال تجوالهم فى أنحاء مصر وجمعهم لآثارها بكل أشكال الحماية والدعم العسكرى والمالى الكامل من جانب قيادة جيش هذه الحملة.

ولكن بالمقارنة بين ما حققه سيتزن على المستوى الفردى وما حققه علماء هذه الحملة على المستوى الجماعى فى مسألة جمع الآثار والمخطوطات، نجد أن المقارنة فى صالح سيتزن، الذى استطاع بمفرده جمع مقتنيات وآثار ومخطوطات شرقية ومصرية قديمة، وجلبها إلى بلده جوتا، على نحو مثير للدهشة. وكان متأثرًا فى هذا ومقلدًا فى نفس الوقت بما كان يتردد فى أوروبا أنذاك من اصداء حول حجم وكمية الآثار المصرية القديمة التى كانت تنقلها السفن الفرنسية من مصر إلى متاحف فرنسا خلال فترة تواجد قوات حملتها فى مصر، ولسنوات عديدة بعدهاعلى يد فرنسيين آخرين[١٠].

وبالعودة إلى عملية تأهيل سيتزن لنفسه، وإتقان فن الترحال، وامتلاك موجباته الضرورية، ركز فى رحلته الثانية على إتقان اللغة العربية تَحَدُّثًا وكتابةً، ولهذا الغرض قصد فى منتصف عام ١٨٠١ الشام وعلى وجه التحديد.

وبعد أن تجول فى بلداتها، أعجبته مدينة حلب بصفة خاصة، فقرر الاستقرار بها لمدة عام، منتحلًا اسمًا عراقيًّا شيعيًّا وهو "الحاج موسى الحكيم Haggi Mosa Al- Hakim ".

وللمرة الثالثة غادر سيتزن مرة أخرى من بلدة جوتا، ووصل إلى الشام واستقر فى حلب فى نوفمبر ١٨٠٣ ، وأقام بها حتى أبريل من عام ١٨٠٥، حيث تعمق فى تعلم اللغة العربية على يد عدد من شيوخها، وتعلم التحدث بالعامية الشامية جيدًا من أبناء ريفها، واستوعب أيضًا أدق طباع الحياة الإجتماعية العربية فى المأكل والمشرب والمسلك، ولبس الملابس العربية خلال إقامته وتجواله فى أنحاء البلدان المحيطة بمدينة حلب(١١).

وبعد أن تمكن سيتزن من إتقان اللغة العربية، وأتقن ممارسة عادات وتقاليد قبائلها، وأصل تجواله في معظم بلدات سوريا لبنان وفلسطين ومكث فى القدس حتى أوائل عام ١٨٠٧، وكان سيتزن دقيقًا فى كتابة تفاصيل مشاهداته خلال تلك الرحلة فى منطقة الشام فى أوراقه، والتى استغرقت أربع سنوات. ولفت نظره بقوة تقدم فنون العمارة وتشييد المبانى، وكثرة الآثار الشرقية القديمة فى الشام، واهتم طوال رحلته بجمع المخطوطات العربية التى وجدها فى دور العبادة ولدى شيوخ العشائر العربية، حتى امتلأت الصناديق التى أعدها لحمل هذه المخطوطات وغيرها من الآثار القديمة، ورتب وإرسالها إلى موطنه فى مدينة جوتا عن طرق صديقه الدبلوماسى النمساوى هامر فى القسطنطينية(١٢).

وسجل سيتزن أيضا مظاهر النشاط التجارى والزراعى فى بلدان الشام، وعبر عن إعجابه بنظام الحياة الاجتماعية فى الحضر والريف الشامى، وخاصة طرق زراعة ورى المحاصيل الزراعية فى الريف، وعبر أيضًا عن إعجابه بنظام رى الأراضى، وبهمة المزارع السورى فى متابعة ورعاية محاصيله، وأرسل الى بلدته جوتا داخل صناديقه بعض بذور هذه المحاصيل، على أمل أن يجرب فى وقت لاحق زراعتها فى تربة ومناخ موطنه الأوربى(١٣).

ولم تخل إقامتة المطولة فى بلاد الشام من بعض المتاعب، حيث

تعرض للسرقة مرتين، وتعرض للتهديد بالقتل على يد أحد مشايخ لبنان، ولم ينقذه من هذا التهديد سوى تدخل القناصل الأوربيين فى طرابلس وعكا(١٤).

وواصل سيتزن ترحاله برذًا من فلسطين فى مارس ١٨٠٧ فى طريقه إلى شبه جزيرة سيناء، حيث التحق بقافلة لبدو سيناء حتى وصل إلى سانت كاترين وزار كنيستها والأماكن المقدسة المحيطة بها، ثم واصل رحلته حتى وصل السويس فى ١٨ مايو ١٨٠٧، ومنها إلى القاهرة التى وصلها أواخر مايو ١٨٠٧، حيث أقام بها وتجول خلال زيارته لها فى البلدان المحيطة بها(١٥).

وفى القاهرة لم ينتحل سيتزن لنفسه اسمًا عربيًّا، بل قدم نفسه إلى رجال محمد على والآخرين باسمه الحقيقى وبأوراق ثبوتية بروسية. واتصل بعدد من الأوربيين والقناصل والعلماء المصريين، وفى مقدمة هؤلاء القناصل قنصل الإمبراطورية النمساوية العام فى القاهرة روسيتى Rosetti، الذى سكن فى بيته فترة من الوقت، كما تعرف فى القاهرة على عدد من العلماء الفرنسيين الذين عادوا إلى مصر فى أوائل عهد محمد على، وممن كانوا قد شاركوا فى وضع كتاب وصف مصر أثناء وجود الحملة الفرنسية.

ويذكر سيتزن فى يومياته أن هؤلاء العلماء عادوا إلى مصر بعد أن استقرت الأوضاع فيها للعمل فى عدد من مشاريع الرى المصرية الجديدة، التى بدأ الوالى محمد على يتطلع لتنفيذها(١٦).

كذلك اتصل سيتزن أيضًا بكل من الشيخ عبد الرحمن الجبرتى، وعالم الفلك آنذاك الشيخ الميقاتى، وخصهما بالذكر في يومياته، وتناقش معهما فى عدد من المسائل الثقافية والاجتماعية، وسجل فى يومياته تقديره الخاص لثقافة واتساع مدارك الشيخ الجبرتى، والمامه هذا الشيخ بالتطورات المحلية والخارجية. واطلع سيتزن على ما بدفتر يوميات الجبرتى، وما كتبه حتى أواخر عام ١٨٠٧، وثمن الجهد الذى يبذلة هذا الشيخ "الأزهرى"، على حد وصفه، فى رصد وتدقيق وتدوين الوقائع التاريخية فى دفتر يومياته(١٧).

وفى ضوء ما شاهده سيتزن ودونه فى أوراقه بدأت القاهرة تشهد انضباطًا

واستقرارًا واضحًا منذ أن تولى محمد على حكم مصر عام ١٨٠٥، وبفضل سياسة هذا الباشا الحازمة تمكن من فرض الأمن فى أنحاء الوجه البحرى على أقل تقدير حتى ذلك الوقت، الآمر الذى أتاح لهذا الرحالة الألمانى التجوال فى هذه المناطق الأمنة، لكنه تجنب تمامًا لزيارة الوجه القبلى آنذاك لعدم إستتباب الأمن فيه.

وأضاف سيتزن أن القاهرة أصبحت شيئًا فشيئًا قبلة للأوربيين وبعض المستشرقين، وخاصة الإنجليز والفرنسيين منهم، حيث قابل سيتزن عددًا منهم فى مقاهى فنادقها، ونصحوه بعدم الذهاب الى مدن الوجه القبلى، وقدر هؤلاء الأوربيين لمحمد على جرأته وإقدامه على ضبط أحوال البلاد(١٨).

كما شاهد سيتزن بوادر النهضة والتحديث فى السنوات الأولى من عهد محمد على، عندما زار فى وسط القاهرة المركز الطبى الذى أمر محمد على بإنشائه على النسق الأوربى، وعين للعمل فيه وإدارته الطبيب الفرنسى ماربارج Dr. Marparg وكلفه بتنفيذ أول تجربة صحية فى مصر لتلقيح الأطفال ضد مرض الجدرى، وسجل سيتزن اهتمام الباشا محمد على بتعميم هذه التجربة على كل اطفال مدينة القاهرة أولًا، ولإقناع أولياء أمور هؤلاء الأطفال بجدوى هذا اللقاح لأبنائهم، أمر الباشا بإعطائه أولًا لكل أطفال عائلته، الأمر الذى شجع بالفعل كثير من هؤلاء السكان على الذهاب بأطفالهم الى هذا المركز لأخذ هذا اللقاح، وأستحسن سيتزن كثيرًا هذه التجربة، من منطلق أنه فى الأصل دارسٌ للطب(١٩).

ولكن رؤية سيتزن للمجتمع المصري فى ذلك الوقت لم تكن فى مجملها إيجابية، حيث عكست كتاباته إشارات سلبية عديدة، وكان متعاطفًا مع الفلاحين بصفة عامة والمرأة المصرية بصفة خاصة، فى ضوء ما شاهده من استغلال رجال الباشا للفلاحين، والقسوة المتناهية فى التعامل معهم، وما اعتبره وضعًا متدنيًا لمكانة آلمرآة فى المجتمع المصرى، وخصوصًا بين الطبقات الدنيا منه.

حيث انتقد بشدة ما اعتبره "حقوق المرآة المهضومة" واستنكر الاعتداء عليها بالضرب وتعنيفها من جانب الرجل. ولم يتوقف سيتزن عند وصف وضع

المرأة على هذا النحو، بل ذكر فى مدونته أن عدم تصحيح هذا الوضع سيظل أحد الأسباب التى تحول دون تقدم هذا المجتمع المصرى، الذى كان يرى فيه كل المقومات التى تؤهله لكى يرقى لمصاف المجتمعات المتقدمة[٢٠].

واشار سيتزن الى أن رفع هذا الغبن عن المرأة سوف يساعد كثيرًا على نهضة مصر نهضة حقيقية، بل دعا سيتزن الباشا محمد على وباقى أركان السلطة فى مصر للتدخل لإصلاح وضع المرأة هذا، كما دعاهم لأن يأخذوا بكل جوانب ومظاهر التحديث، وليس بالجانب المادى فقط. وكان سيتزن يرى أن تدخل حكومة الباشا ضرورى من خلال الأوامر والتوجيهات والمتابعة المستمرة، حتى يمكن رفع الظلم عن كاهل المرأة فى اسرع وقت، وعدم ترك هذا الآمر للمجتمع، الذى تكبله [طبقًا لوجهة نظره] عادات وتقاليد لا تنصف المرأة، بل تقيدها وتجبرها على التسليم بالأمر الواقع [٢١] (*).

وكان لسيتزن عدة مقترحات مُبتكرة، لتحسين الحياة المعيشية لسكان القاهرة. فقد لفت نظره تراكم أكوام القمامة والأتربة فى شوارع القاهرة وخاصة فى شرقها، وشعر بالضيق والانزعاج عندما شاهد فقراء المدينة ينبشون فى هذه الأكوام، وسجل فى أوراقه مقترحًا بأن تتولى حكومة الباشا تجميع هذه الأطنان من القمامة والأتربة الناتجة عن عمليات هدم المبانى، وتستفيد منها فى ردم كثير من المستنقعات والبرك المتواجد فى أحياء مدينة القاهرة وتتسبب فى انتشار الأمراض بين السكان.

كما اقترح على حكومة الباشا محمد على أن تردم أيضًا المستنقعات الواقعة على شاطئ البحر المتوسط، ، وبذلك يستفيد الباشا من الأراضى الجديدة فى تنفيذ مشاريع عمرانية وزراعية، على النحو الذى فعلته الحكومة الهولندية على حد ذكر سيتزن[٢٢]. وهذه الاقتراحات من جانب سيتزن يؤكد لنا أنه تجول وتمعن فى جغرافية القاهرة والدلتا حتى المدن الساحلية الواقعة على البحر المتوسط فى ظل أوضاع آمنه مستقرة وبقدر كبير من الأريحية.

ومن المدهش أن يواصل سيتزن الكتابة فى أوراقه عن مبادرات وحلول لعدد من الظواهر والمشكلات التى لفتت نظره خلال فترة إقامته الأولى في

القاهرة. وهذه المبادرات كانت تتماشى حقيقة فى ذلك الوقت مع تحديث المجتمع المصرى، وربما تتماهى مع تطلعات محمد على ورغبته فى تجميل القاهرة مركز حكمه، وتأسيس بنية تحتية تتناسب مع هذه التطلعات، الأمر الذى يجعلنا نميل لفكرة أن مبادرات سيتزن إما أنها كانت بالفعل تصل إلى محمد على عن طريق طرف ثالث وهذا هو أغلب الظن، وإما أنهما تقابلا وتبادلا وجهات النظر معًا بشأنها أكثر من مرة. وعلى كل حال، يشعر القارئ لهذه المقترحات أن سيتزن يكتبها بثقة واضحة فى النفس، وكأنه مكلف بعرضها على رجال الإدارة فى مصر فى ذلك الوقت.

ومرة ثالثة يقترح سيتزن حلًّا مبتكرًا لحل أزمة شُح مياه الشرب فى مدينة القاهرة، عندما وجد أن نهر النيل يمد السكان بمياه الشرب دون معاناة كبيرة خلال أشهر الفيضان، فى حين يعانى هؤلاء السكان اشد المعاناة فى تدبير احتياجاتهم من هذه المياه خلال فترة انحسار مياه النيل، وجفاف معظم الخلجان المتفرعة منه والتى تخترق القاهرة، سواء بجلب هذه المياه من النيل المنحسر نفسه أو من الأبار العميقة والبعيدة عن متناول السكان، الآمر الذى يؤدى إلى رفع أسعار هذه المياه، وعجز معظم هؤلاء السكان عن تدبير احتياجاتهم منه، والاكتفاء بشراء مياه للشرب فقط، دون باقى الاحتياجات الصحية والنظافة العامة الأخرى، مما يترتب عليه انتشار الأوبئة والأمراض بين السكان، حسب تفسيره. وفى هذا الصدد اقترح سيتزن على حكومة الباشا تأسيس [ولأول مرة] شبكة لإمداد السكان فى أحياء القاهرة بمياة الشرب بصفة دائمة، وأيضًا شبكة صرف صحى لهؤلاء السكان(٢٣).

وحدد سيتزن فى مذكراته مسار شبكة خطوط المياه المقترحة منه فى القاهرة، لتبدأ من فم الخليج وتعتمد على نفس السواقى المتواجدة هناك، والتى وترفع المياه من نهر النيل لتمد القلعة بالمياه من فوق مجرى العيون، وأن يتم مد أمبوب رئيس من الفخار من الساقية الأولى الواقعة على شاطئ نهر النيل، ومنه يتفرع مع مسار منحدر مع شاطئ الخلجان التى تتخلل القاهرة، وبذلك تمد خطوط المياة هذه المصنوعة من الفخار أحياء المدينة فى مواقع محددة وقريبة

من التجمعات السكانية باحتاجاتها من المياة الصالحة للشرب.

كما نصح سيتزن حكومة الباشا فى إقتراح ثان له بالاستفادة من أعماق هذه الخلجان بمد شبكة صرف صحى خلالها فى مدينة القاهرة أيضًا، وتكون وموازية لخطوط مياه الشرب، وبعد ذلك يتم ردم وتسوية هذه الخلجان لتصبح شوارع ممهدة وصالحة لإستخدام سكان المدينة[٢٤].

ثم جاء اقتراح سيتزن الثالث، الذى نفذه محمد على بالفعل فيما بعد عام ١٨٢٨، عندما أشار فى أوراقه عام ١٨٠٨ إلى ضرورة أن يأمر الباشا بإنشاء جريدة باللغة العربية تنقل إلى الناس أخبار الحكومة، وتقضى على الشائعات الكاذبة والمشككين فى سياسة الحكومة، أو المناهضين لها[٢٥]. وفى تقديرنا أن إقتراح سيتزن هذا يعد امتدادًا لصحف الحملة الفرنسية، وخاصة جريدة التنبيه، التى كان الجنرال مينو يخطط لإصدارها قبل رحيل الحملة من مصر.

أما عن رأى سيتزن عن فترة إقامته فى القاهرة والدلتا، والتى امتدت من مايو ١٨٠٧ حتى ٣١ يوليو ١٨٠٩، فقد اعتبرها بالنسبة له "فترة راحة ونقاهة"، وذكر أنه شعر براحة نفسية وسكينة فى القاهرة والوجه البحرى بفضل طيبة المصريين، والأمن الذى فرضه محمد على فى ربوع الدلتا وحتى الفيوم، الأمر الذى اتاح له فرصة زيارة الفيوم والتجول فى أنحائها ومشاهدة آثارها.

ولكن كان أشد ما أغضب سيتزن خلال رحلته فى تخوم جنوب القاهرة فى أواخر عام ١٨٠٨، هو رؤيته لمجموعات العبيد القادمة بأجسادها شبه العارية من قلب أفريقيا إلى أسواق الرقيق فى القاهرة، وعبر فى خطاباته، التى أرسلها الى أسرته فى ذلك الوقت، عن ألمه لحالة البؤس التى كان عليها هؤلاء الرقيق، وغضبة الشديد من قسوة تعامل التجار والحراس معهم [٢٦].

من ناحية أخرى، كان سيتزن طوال فترة تجواله فى بلدان الشام، ثم إقامته فى مصر، على تواصل دائم من خلال الرسائل البريدية المتبادلة مع أسرته فى جوتا، وكذلك مع عدد من الأصدقاء، وفى مقدمتهم صديقه الحميم النمساوى هامر، سواء خلال فترة تواجد هذا الأخير فى استانبول، أو بعد

استقراره منذ عام ١٨٠٢ فى فيينا[٢٧] (*).

وكان سيتزن حريصًا أشد الحرص خلال نقاشاته فى مصر مع رجال الدين الإسلامى والمسيحى واليهودى على إبداء احترامه العميق لهم، واستمع لهم جيدًا، ودون أن يظهر مقته لكل أشكال التعصب، التى كانت تبدو من جانب بعضهم خلال حديثه معهم، وذلك حتى لا يثير غضبهم. كما تحاشى دائما الدخول فى جدل حول ما لم يَرُق له من حديث، لكنه سجل فى خطاباته كراهيته الشديدة لقلة من المتزمتين والمحرضين من بين أتباع هذه الأديان الثلاثة.

ولفت نظر سيتزن أن من بين هؤلاء المحرضين والمتعصبين المسلمين من وفد على مصر فى الآونة من الجزيرة العربية، حيث ينشط دعاة الوهابية هناك، على حد ذكره. وأضاف سيتزن عن هؤلاء الوهابيين قوله: "إنهم يقولون أن الدولة العثمانية ابتعدت عن الإسلام، وأنهم يريدون العودة به الى سيرته الآولى، ولهذا السبب هم فى حالة حرب معها". وفى المقابل وجد سيتزن فى نفس الوقت أن جل المصريين المسلمين لا شأن لهم بكل هذه الأراء والجدل "العقيم"، وينأون بأنفسهم عن كل مظاهر"التطرف والتعصب" على حد وصفه. وأكد سيتزن لإى خطاباته، التى أرسلها الى أصدقائه أوائل عام ١٨٠٩ أن عامة المصريين يعيشون حياتهم فى سكينة وهدوء، وأن أتباع الديانات السماوية الثلاث فى مصر معتدلون ومتسامحون، واستنتج من هذا أن غالبية المصريين يتعايشون ويتعاملون مع بعضهم البعض فى سلام ودون مشاكل تُذكر[٢٨] (*).

وما ذكره سيتزن من إستنتاج إنما يدل على أنه تحدث العربية بطلاقة مع رجال هذه الأديان فى مصر، وكانت لديه معرفة جيدة بتاريخها، وعلى دراية باحكامها الفقهية والشرعية إلى حد كبير، مما أهله للتحدث معهم. ويدل أيضًا على أن سيتزن كان يمتلك قدرًا كبيرًا من الشجاعة والثقة فى النفس، والرغبة فى اكتساب مزيد من المعرفة حول علوم وشرائع تلك الأديان، وخاصة الإسلام والمسيحية الأرثوذكسية غير المنتشرة فى أوربا، ولذا كان ينصت لحديث رجال هذه الديانات، ويكاد لا يعلق على ما يسمعه، حتى يجنى ثمرة هذا الحديث.

وقد دون فى أوراقه أنه كان فى كثير من الأحيان يتعمد أيضًا عدم الرد أو التعليق على محدثيه حتى تظل علاقته ودية معهم. ونحن لا نستبعد أن سيتزن كان يريد من وراء هذه الحوارات التعرف أيضًا على رؤية رجال هذه الأديان لحقيقة العلاقة بين أتباع هذه الديانات داخل المجتمع المصرى.

ويشعر القارئ لأوراق سيتزن أنه غادر القاهرة على عجل فى اتجاه ميناء مدينة السويس فى ١٠ أغسطس ١٨٠٩، لكى يستكمل خط سير رحلته فى الشرق على النحو الذى رسمه من قبل لنفسه، ولكى يلحق بمناسك الحج فى مكة والمدينة.

فى ١٥ أغسطس من ذلك العام، أبحر سيتزن على متن سفينة عثمانية من السويس إلى جدة، التى وصلها فى يوم ١٩ من نفس الشهر، حيث قضى سبعة أشهر فى الحجاز، زار خلالها مكة والمدينة. وفى مكة تعرف فور وصوله إليها على شخص يمنى يدعى الشيخ حمزة، وتقرب منه وأدى بصحبته مناسك الحج، وطاف معه حول الكعبة مع الطائفين، كما صعد معه أيضا إلى جبل عرفات مع الصاعدين، منتحلًا في كل هذا مرة أخرى اسمه العراقى الشيعى المُنتحل وسابق الذكر "الحاج موسى الحكيم"، وزار أيضًا –ولكن بمفرده– المسجد النبوى فى المدينة، وشاهد قبر الرسول (ص)، ثم عاد مرة أخرى إلى مكة، وأجرى بها فى الكتمان مسحًا طبوغرافيا وقياسات فلكية لموقع الكعبة بمعدات هندسية بسيطة كانت معه [٢٩].

وفيما يتعلق بمسألة قيام سيتزن بأداء شعائر الحج فى مكة والمدينة فيرجع هذا الى رغبته فى معرفة تفاصيل هذه الشعائر عن قرب، والكتابة عنها لإشباع شغف الأوربيين فى الكشف عن أسرار الشرق وشعائر المسلمين المقدسة، مثله فى هذا مثل كل الرحالة الذين تمكنوا بالإحتيال وإنتحال اسماء إسلامية من الوصول الى مكة والمدينة.

أما ما يتعلق بمسألة المسح الطبوغرافى الذى اجراه سيتزن لموقع الكعبة فى الكتمان فقد برره هو نفسه فى أوراقه بأنه أراد أختبار ما قرأه فى كتب قدامى الجغرافيين المسلمين من أن الكعبة من الناحية الجغرافية هى مركز الكرة

الأرضية، الا ان ادواته الهندسية غير الدقيقة لم تسعفه أنذاك فى الوصول الى نتيجة محددة فى هذا الصدد [٣٠].

وواصل سيتزن رحلته، حيث غادر مكة فى أواخر مارس ١٨١٠ بصحبة الشيخ حمزة اليمنى فى طريقهما إلى اليمن عن طريق ميناء مدينة جدة، الذى منه إستقلا سفينة يمنية صغيرة نقلتهما ويمنيين آخرين إلى ميناء مدينة الحديدة، الذى نزلوا به فى ٨ أبريل ١٨١٠، وفيه ودع الشيخ حمزة سيتزن، ليأخذ كل منهما وجهته الخاصة (*).

وفى اليمن زار سيتزن تعز وصنعاء وصعده ومأرب، وعاين سد مأرب الشهير ورسم له خريطة[٣١]. ولم يكتب سيتزن فى أوراقه الكثير عن المجتمع اليمنى، ويشعر القارئ لهذه الأوراق أن سيتزن كان كثير الترحال والتنقل من منطقة إلى أخرى فى اليمن إلى الحد الذى جعله لا يدون تفاصيل مشاهداته لها، ويكتفى فقط بذكر انه زار أهم المعالم فى مدن شمال وشرق البلاد [٣٢].

وقد انتهت رحلة سيتزن فى اليمن بمقتله بالقرب من تعز فى سبتمبر ١٨١١، على حد ما ورد من معلومات حول هذه النهاية المأساوية التى انتهت بها حياته. وقد تأكد من واقعة مقتله الرحالة البريطانى ج.س. بوكينجهام J.S. Buckingham ، الذى زار اليمن بعد أربع سنوات من مقتل سيتزن، وكتب إلى هامر عام ١٨١٥ فى فيينا يخبره بما سمعه فى اليمن حول ظروف مقتل سيتزن، حيث ذكر له أن طبيب شركة الهند الشرقية البريطانية والهندى الأصل ويدعى د. أيكن Dr. Aikin المقيم فى ميناء المخا باليمن والواقع على شاطئ البحر الأحمر سمع من السكان اليمنيين المترددين عليه للعلاج أن إمام اليمن منذ أربع سنوات أمر بقتل شخص تبين أنه ذو ملامح أوربية، وأن هذا الطبيب كان قد التقى فى مقر عمله بالمخا فى أوائل عام ١٨١١ بسيتزن، قبل رحيل هذا الآخير من المخا فى طريقه إلى مدينة صنعاء[٣٣].

وأضاف بوكينجهام فى رسالته إلى هامر أن موظف البريد بشركة الهند البريطانية فى ميناء المخا ويدعى " مستر فوربس Mr.Forbes " أبلغه أن سيتزن حضر إليه قبل رحيله بيومين من المخا، وسلمه آخر خطاباته لكى

يرسلها مع بريد شركة الهند إلى بلدته جوتا فى ألمانيا، وأن هذا الموظف أكد أيضًا خبر مقتل سيتزن على يد رجال الأمام، وأن سيتزن أبلغه أن السلطات اليمنية فى المخا صادرت ما لديه من ممتلكات، إلا أنه قبل واقعة مصادرة ما لديه على يد السلطات اليمنية كان قد تمكن من تسلم حقيبة أوراقه، مع معظم ما لديه من مقتنيات، إلى شخص كان قد تعرف عليه فى القاهرة وهو تاجر إيطالى يدعى "بينزونى Benzoni"، الذى كان فى رحلة تجارية بميناء المخا لشراء البن اليمنى، وطلب سيتزن من بينزونى هذا أن يتولى إرسال هذه الحقيبة وممتلكاته بالبريد من القاهرة إلى بلده فى ألمانيا(٣٤).

ويبدو أن سيتزن كان يتجول فى اليمن ثم يعود سريعًا إلى ميناء المخا، القريب من مدينة تعز، لوجود مكتب لشركة الهند الشرقية البريطانية بها وموظفيه الأجانب، الأمر الذى كان يتيح له فرصة أن يستأنس بهم ويشعر بشئ من الأمان والطمأنينة بينهم، ومن خلال محطة بريدها يبعث برسائله إلى أصدقائه وأسرته فى ألمانيا، وتسلمه أيضًا الرسائل الواردة إليه من الخارج.

من ناحية أخرى، كان يتردد على هذا الميناء تجار أوربيون، ومنهم هذا التاجر الإيطالى بينزونى نفسه، لشراء وتصدير منتجات اليمن الزراعية إلى البلدان الأوربية وعلى رأسها محصول القهوة اليمنية المفضلة لدى الأوربيين. كل هذا كان يجعل ميناء المخا، الذى تنشط فيه حركة السفن الإنجليزية وغيرها من السفن المارة بالبحر الأحمر، الملاذ الآمن لسيتزن، والذى يخفف عنه الشعور بالغربة، الذى عكسته كتاباته الأخيرة من فترة تواجده باليمن، والذى انتهى إلى مقتله، دون أن يستكمل خطة رحلته فى الجزيرة العربية، حيث كان ينتوى زيارة عدن وعُمان وباقى بلدان الخليج العربى، ثم يبحر من هناك إلى الهند لكى يستقل منها سفية إنجليزية ليعود بها إلى موطنه فى ألمانيا، ليستقر عدة سنوات فى بلده جوتا، على أمل أن يتمكن من نشر عدد من المؤلفات حول رحلاته فى بلدان الشرق الأدنى، ودراساته حول حضارات هذا الشرق(٣٥).

وروى أيضا نفر من أهل صنعاء لطبيب الشركة الهندية "أيكن"، ما يمكن أن نعتبره إجلاءً لحقيقة مقتل سيتزن، من أن هذا الشخص ذو الملامح الأوربية

[سيتزن] كان يسمى الحاج موسى الحكيم، وأنه انطلق من ميناء المخا برفقة قافلة مكونة من ١٧ جملًا كانت تحمل البضائع من هذا الميناء إلى صنعاء، وبعد خروج هذه القافلة من المخا بيومين، ووصلت بالقرب من تعز، لقى هذا الشخص حتفه، وانتشر خبر مقتله على نطاق واسع بين سكان تعز والمناطق المحيطة.

وطبقا لما ذكره الطبيب الهندى أيكن لبوكينجهام، كان هذا الشخص الذى انتشر خبر مقتله هو سيتزن نفسه، وأضاف أيكن نقلا عن السكان المحليين أن الذى أمر بقتل الحاج موسى الحكيم هو إمام اليمن نفسه، ونفذه رجاله بعد خلاف حول تقدير نصيب هذا الإمام فى بضائع هذه القافلة، ورغبة هؤلاء الرجال التابعين للإمام فى مصادرة حمولتها(٣٦).

وفى ضوء هذه الرواية سابقة الذكر نخلص إلى أن مرافقة سيتزن لهذه القافلة هو السبب القوى الذي أودى بحياته، فى وقت لم يذكر أى من الرواة مقتل أى شخص آخر من المرافقين لهذه القافلة خلاف سيتزن، مما يعنى أنه بالفعل قتل وحده. ولم توضح لنا المصادر التى اعتمدنا عليها لماذ قُتل سيتزن دون غيره؟، وما حقيقة علاقته بهذه القافلة؟، وهل كان مجرد مرافق لها أم مالكٍ لبضائعها، أو مساهم فيها؟، ومن ثم حاول منع مصادرتها والدفاع عنها، الأمر الذى ترتب عليه مقتله.

ونخلص من هذا، أن هناك ضبابية فى علاقة سيتزن بهذه القافلة لم توضحها مصادرنا، وغموضًا بعض الشئ فى السبب الحقيقى الذى ادى إلى مقتله.

وهذا يدفعنا إلى طرح تفسيرين آخرين من جانبنا لمقتل سيتزن. الأول وهو أن يكون هذا الرحالة الألمانى راح أصلًا ضحية وشاية وصلت إلى مسامع إمام اليمن، وتتعلق بكون سيتزن ليس عراقيًّا ولا مسلمًا، ولكنه أوربى مسيحى تنكر وانتحل اسمًا عربيًّا مسلمًا منذ أن وصل الى الحجاز ودخل فى موسم الحج بمكة والمدينة، حتى وصل إلى اليمن بهذه الصفة المنتحلة، الأمر الذى وجده هذ الإمام مبررًا شرعيًا له لكى يأمر بقتل هذا الأوربى المسيحى [سيتزن]

عقابًا له على فعلته هذه. وأغلب الظن أن الشيخ حمزة اليمنى هو نفسه من اوشى به لدى إمام اليمن أو أى من رجاله[٣٧]. أما الاحتمال الثانى، فمفاده أن سيتزن فقد حياته بالفعل لكونه صاحب رأس مال قافلة الجمال السبعة عشر، وحاول فعلًا الدفاع عنها ضد محاولة الاستيلاء عليها من جانب قوات رجال الإمام، فدفع حياته ثمنًا لذلك(*).

الخاتمة:

كان الرحالة الألمانى أولريش جاسبر سيتزن مستشرقًا منذ صدر شبابه. ترك الطب، وأحب الشرق الأدنى وحضاراته، ووهب حياته لما أحبه، رحالًا بين مدنه وقراه وفيافيه. وقضى فى ترحاله هذا ما لا يقل عن الإثنى عشر عامًا الأخيرة من حياته بعيدًا عن وطنه، وحتى مقتله فى اليمن عام ١٨١١. ومكث فى الشام فترة طويلة، حتى تمكن من التحدث باللغة العربية بلهجة سكانه، ومارس عاداتهم وتقاليدهم وحياتهم اليومية العربية كمن وُلد بينهم، الأمر الذى شجعه فى مرحلة متأخرة من حياته على انتحال اسم "موسى الحكم" العراقى الشيعى. وبهذ الاسم المستعار تجول سيتزن وعاش سنوات فى الشام واليمن. ولكنه بينهما جاء إلى مصر عام ١٨٠٧، وعاش فيها حوالى عامين بصفته رحالة ألمانيًّا وباسمه الحقيقى، لعلمه أن حاكم مصر محمد على يقدر الأجانب ويجلهم.

وفى مصر احتك سيتزن بشرائح المجتمع المصرى، خلال تجواله فى كافة أنحاء الوجه البحرى والفيوم. وعرض حلولًا لتحسين الحياة المعيشية للمصريين عامة وفى القاهرة بصفة خاصة. وكتب عن مظاهر التحديث التى شاهدها فى بدايات عصر محمد على، وكتب أيضًا عن صفة التسامح التى يتسم بها المصريون، وفى نفس الوقت عبر أيضًا عن غضبه من سوء معاملة العبيد، وقسوة المجتمع على المرأة المصرية.

وقد عاد سيتزن مرة أخرى إلى تقمص اسم العراقى الشيعى "الحاج موسى الحكيم" فى أثناء رحلتيه بالحجاز واليمن، ونجح فى هذا التنكر. ومن وراء ذلك الإسم المستعار تمكن من السفر بين الحجاج إلى الحجاز أواخر عام ١٨٠٩،

ومشاهدة موسم الحج فى مكة والمدينة. ومارس سيتزن كافة تفاصيل شعائر الحج، فى وقت كان الوهابيون، بما عُرف عنهم من حزم وتشدد- يسيطرون على هاتين المدينتين المقدستين.

وفى اليمن عاش سيتزن [الحاج موسى الحكيم] ما يقرب من العام والنصف، ومارس حياة أهلها، حتى مقتله بالقرب من تعز عام ١٨١١.

الهوامش:

(*) نظمت مكتبة مدينة جوتى فى ألمانيا الاتحادية وبالتعاون مع جامعتها وبلدية مدينة أولدنبورج Oldenburg يومى ٢٣ و٢٤ سبتمبر من عام ١٩٩٤ ندوة موسعة فى قصر فريدن شتاين Scloß Frieden Stein بالمدينة حول حياة ورحلات سيتزن فى البلدان الشرقية، وتم نشر أبحاث هذه الندوة عام ١٩٩٥ تحت عنوان " أولريش جاسبر سيتزن، حياته وأعماله: " Ulrich Jasper Seetzen“ Leben und Werk ، وكتاب هذه الندوة موجود بالطابق الأرضى بمكتبة جامعة بون تحت رقم 889/2005. ومدينة جوتا التى ينتمى إليها سيتزن هى مدينة صغيرة نسبيًا فى سكسونيا السفلى الواقعة فى شرق ألمانيا، وليس لإسمها اي علاقة بشاعر ألمانيا الشهير جوته Goethe .

(١) Veröffentlicungen der Forschungs und Landesbibliothek Gotha , Heft 33 S.44, Gotha , Deutschland ,1995.

للمزيد انظر: Katja Vogel, Thomas Huck: *Geschichte des Gothaer Landes.* *Ausstellungsführer*. Hrsg: Gothaer Museum für Regionalgeschichte. 1997.

(٢) انظر Joseph Freiherr Von Hammer – Purgstall, Erinnerungen aus meinm Leben, bearbeitet von Reinhart Bachofen Von Echt, Wien und Leipzig 1940, S. 110.

(*) للمزيد حول قصر فريدن شتاين وعمارته انظر:

Jörn Tillmann Rieckhof Nackas: Schloss Friedenstein in Gotha. Entwürfe für die Residenz Ernsts des Frommen (1601–1675). Berlin 2010 (Berlin, Freie Univ., Magisterarbeit, 2010).

(٣) انظر: المجلد رقم ١، ص ٣١، من مجموعة سيتزن بأرشيف مكتبة بلدية جوتا . ألمانيا الاتحادية.

(٤) انظر: المستشرق الألمانى فيلهلم بيرتش Wilhelm Pertsch، رحلات سيتزن فى بلدان المشرق، مكتبة بلدية جوتا، ألمانيا الاتحادية ١٨٩٣، من ص ١ إلى ١٠.

انظر هنا أيضا :

Der Orientreisende Ulrich Jasper Seetzen und die Wissenschaften, Detlef Haberland (Hg.) , Oldenbuger Forschungen Neue Band 35 , S. 173 , Oldenburg - Deutschland 2017.

(٥) نفس المصدر السابق ص ٤١١.

كانت مدينة جوتا خاضعة لدوق ساكسونيا السفلى الألمانى، ثم آلت منطقة جوتا كلها عام ١٧٩٣ بالميراث الى ملكة روسيا كاترين الثانية، وبذلك أصبح سكان هذه المنطقة رعايا روسيين بمن فيهم سيتزن بالطبع، وبعد هزيمة روسيا علي يد جيش نابليون عام ١٨٠٧ تم ضم جوتا وكل منطقة جفرلاند Jeverland من سكسونيا السفلي بأمر من نابليون إلى مملكة هولندا التى حكمها شقيقه لويس بونابرت، ثم ضمتها بروسيا إليها بعد هزيمة نابليون بونابرت عام ١٨١٥.

(٦) كان سيتزن يتطلع إلى أن يأتى اليوم الذى يعكف فيه على دراسة هذه المقتنيات، ويخرج منها بدراسات بتائج مثمرة، إلا أن وفاته المفاجئة في اليمن عام ١٨١١ حالت دون ذلك، مما أدى بأسرته إلى أن تسلم كل هذه المقتنيات إلى مكتبة بلدية جوتا.

(*) للمزيد حول الرحالة والمستكشف الألمانى الشهير الكسندر فون هومبلت انظر:

Alexander von Humboldt, *Personal Narrative of Travels of the Equinocial Regions of the New Continent during Years 1799–1804* (London, 1814), Vol. 1.

(٧) مصدر سابق.

Veröffentlicungen der Forschungs und Landesbibliothek Gothe , Heft 33, S. 94

(٨) نفس المصدر السابق ص ٥٣.

(*) أدت الثورة الصناعية وتطور التجارة العالمية منذ القرن الثامن عشر إلى التوسع فى نظام الصيارفة فى أوروبا، وفى تمويل نشاط التجار وصفقاتهم بين الشرق والغرب عن طريق مؤسسات مالية متعددة، ومن أجل هذا الفرض تم تعيين وكلاء موثوق فيهم لهذه المؤسسات فى عدد من المحطات التجارية والمدن المعروفة فى الشرق الأدنى. وقد استفادت أسرة سيتزن من هذا النظام المالى، حيث كانت من وقت للآخر تُرسل إليه حولات بنكية بوساطة هذه المصارف الأوربية، التى كانت تتكفل بدورها وعن طريق وكلائها بدفع قيمة هذه الحوالات إليه فى أثناء ترحاله بالبلدان الشرقية.

(٩) للمزيد حول أثر الحروب النابليونية على الدوقيات الألمانية انظر:

G. Bodart,Militär-Historisches Kriegslexikon 1618-1905", Wien und Leipzig 1907.

(*) كان لتعدد انتقال تبعية منطقة جوتا بين روسيا وهولندا وبروسيا خلال فترة قصيرة من الحقبة النابليونية آثاره السلبية على الأسر الحاكمة وكبار الإقطاعيين فى سكسونيا السفلى، كما نتج عنه إنعدام استقرار دوق منطقة جوتا واضطراب وضعه المالى، الأمر

الذي أجبر سيتزن بالدرجة الأولى على مصادر أسرته الخاصة فى تمويل رحلاته منذ عام ١٨٠١.

(١٠)) انظر أيضًا هنا الدراسة القيمة التى آجراها المؤرخ الألمانى كروسة حول رحلات سيتزن فى بلدان الشرق الأدني ونشرها فى برلين عام ١٨٥٤ تحت عنوان: Ulrich Jasper Seetzen's Reisen, Herausgegeben und Commentirt von Prof.Dr. F.R. Kruse, Berlin 1854.

(١١) انظر المجلد رقم ٢، ص ١٢٥، من مجموعة سيتزن فى أرشيف مكتبة مدينة جوتا بألمانيا الاتحادية.

اختار سيتزن متعمدًا لنفسه وهو فى الشام اسمًا شيعيًا لعدة أسباب، فمن ناحية لكى يحتمى فيه ويُغفر له إذا أخطأ أمام أتباع المذهب السنى، وإذا ما أخطأ فى أداء أى من شعائر الإسلام، فيقال إنه شيعى ويمارس هذه الشعائر بطريقة أخرى غير طريقة غالبية أهل الشام، وهو مبرر اعتمد عليه كثيرا وأنقذه عدة مرات من الوقوع فى حرج شديد. من ناحية أخري تخفى وراء هذا الاسم الشيعى لأنه منذ البداية كان ينتوى التوجه إلى اليمن، ويعرف من قراءاته أن أتباع المذهب الزيدى الأقرب إلى المذهب الشيعى فى يدهم آنذاك مقاليد الحكم والسلطة فيها.

(١٢) نفس المصدر السابق، ص ١٣٠.

(١٣) نفس المصدر السابق، ص ١٣٨. سجل سيتزن فى يومياته إعجابه بحياة البدو ونظامهم الاجتماعى فى بلاد الشام، وكان خلال اقامته بينهم يمارس نفس عاداتهم.

(١٤) انظر المجلد رقم ٣، ص ٤٠ ، من مجموعة سيتزن فى أرشيف مكتبة مدينة جوتا.

(١٥) نفس المصدر السابق، ص ٧٨.

كان سيتزن يكتب مرات فى دفتره تاريخ مشاهداته باليوم على وجه التحديد، ومرات أخرى لا يذكر اليوم، ويكتفى بذكر الشهر أو فترة تقريبية من العام. وربما كان السبب فى هذا هو حالة التحرك والترحال الدائم التى كان يتعايش معها، والتى كانت لا تسمح له فى كثير من الآحيان بتدوين مشاهداته يوميًا.

(١٦) نفس المصدر السابق، ص ٨٠.

تتجلى لنا هنا عبقرية محمد على، عندما دعا هؤلاء العلماء الفرنسيين عام ١٨٠٧ للقدوم إلى مصر، وهم أصحاب خبرة ودراسات سابقة حول تطوير طرق رى الأراضى الزراعية من خلال عملهم فى إعداد كتاب وصف مصر.

(١٧) نفس المصدر السابق، ص ٨٤.

(١٨) نفس المصدر السابق، ص ٨٥.

(١٩) نفس المصدر السابق، ص ١٢٣.

(٢٠) نفس المصدر السابق، ص ١٣٩.

(٢١) نفس المصدر السابق، ص ١٤٠.

(*) من الواضح أن سيتزن قيم وضع المرأة فى المجتمع المصرى من خلال رؤيته هو، وليس من المنظور الأوربى، الذى كانت المرأة فيه وحتى ذلك الوقت تعانى من مظاهر عدم المساواة مع الرجل. ويبدو أن سيتزن على المستوى الشخصى سبق مجتمعه الأوربى آنذاك في قضية الدعوة إلى تحرير المرأة، وأخذ يدعو لها فى مصر أيضًا، كما أنه لم يدرك دور المرأة المصرية القوى فى إدارة شؤون الأسرة ومكانتها الرفيعة بين أفراد هذه الأسرة. وعلى الرغم أننا نقر نقده لبعض أوجه الظلم والوقع على المرأة فى المجتمع المصرى مثل الضرب والتعنيف والمعاناة من جراء بعض التقاليد البالية، إلا أننا لا نقره فى تعميم هذا على كل سيدات المجتمع المصرى.

(٢٢) نفس المصدر السابق.

(٢٣) نفس المصدر السابق، ص ١٥٥ وما بعدها.

لم يوضح لنا سيتزن فى أوراقه فيما إذا كان على إتصال بالباشا محمد على من عدمه خلال فترة تواجده فى مصر، وفيما إذا كانت مقترحاته تلك تصل إلى الباشا أم لا، وهل طلب منه محمد على تقديم حلول لبعض هذه المشكلات الاجتماعية والعمرانية. ولكن فى تقديرنا أن مقترحات سيتزن وأراءه كانت تصل إلى الباشا بشكل أو بأخر، كما كانت تصل إليه كل كبيرة وصغيرة تحدث فى أنحاء القاهرة على أقل تقدير، بدليل أن بعضًا من هذه المقترحات . مثل ردم البرك . تم تنفيذها فيما بعد. ومن الواضح أيضًا أن الخبرة العلمية لسيتزن ودراسته للطب وعلوم الطبيعة قد غلبت عليه ودفعته لتقديم حلول لما كان يراه من مشكلات خلال فترة اقامته بالقاهرة.

(٢٤) نفس المصدر السابق.

(٢٥) نفس المصدر السابق، ص ١٦٦

(٢٦) نفس المصدر السابق.

(٢٧) نفس المصدر السابق، ١٧٠.

(*) من المصدر السابق، يتبين لنا أن هامر برع فى علم الترجمة من اللغات الشرقية

والأوربية وإليها وخاصة بين العربية والتركية، ولذا التحق كمترجم بالبعثة الدبلوماسية النمساوية فى العاصمة العثمانية، التى أقام فيها منذ عام ١٧٩٨ وحتى عام ١٨٠٢، وكان أيضًا خلال هذه الفترة مسؤولًا عن متابعة شؤون القنصليات النمساوية فى مصر وبلاد الشام، وفى نفس الوقت عمل مترجمًا لدى بلاط السلطان العثمانى، ثم استقر منذ عام ١٨٠٢ فى فيينا عاصمة بلاده.

(٢٨) مصدر سابق، ص ١٥٠ وما بعدها

. Der Orientreisende Ulrich Jasper Seetzen und die Wissenschaft

(*) طبقًا للمصدر السابق أيضًا كان قنصل الإمبراطورية النمساوية فى القاهرة روسيتى ممثلًا أيضًا لوكالة البريد الإنجليزية فى مصر منذ عام ١٨٠١ بالاضافة إلى عمله الأساسى، وكان يعمل لديه من يتولى تنظيم حركة البريد الصادر والوارد من مصر وإليها، وكان هذا البريد يُنقل بالدواب برًا من القاهرة إلى رشيد لكى تحمله السفن العثمانية، أو إلى الإسكندرية لكى تنقله السفن الإنجليزية. ولذا تعد خطابات سيتزن إلى أسرته وأصدقائه أحد أهم مصادرنا فى الكتابة عن رحلته إلى مصر.

(٢٩) مصدر سابق، المجلد رقم ٣، ص ١٣٩ ، من مجموعة سيتزن.

لم يقابل سيتزن فى أى من بلدان الشرق الرحالة السويسرى الشهير يوهان لودفج بوركهارت Johann Ludwig Burckhardt على الرغم من تقارب توقيت رحلتيهما وأيضًا تطابق خط سير كل منهما إلى حد كبير. وعلى كل حال كان سيتزن هو الأسبق فى القيام برحلته فى الشام ومصر، حيث وصل بوركهارت إلى الشام عام ١٨٠٩ والى القاهرة عام ١٨١٢، فى حين كان سيتزن قد غادر القاهرة إلى الحجاز فى أغسطس من عام ١٨٠٩. وتعود شهرة بوركهارت فى مصر الى كونة توفى ودفن فى القاهرة فى أكتوبر من عام ١٨١٧ باسمه المنتحل "الشيخ ابراهيم بن عبد الله". وخلال زيارتى لمكتبة جامعة بون الوطنية فى صيف ٢٠٢١ وجدت بها كتابين لبوركهارت باللغة الألمانية، الأول مكون من جزئين بعنوان: رحلات فى سوريا وفلسطين ونواحى جبال سيناء، Reisen in Syrien, Palästina und der Gegend des Berges Sinai ، وتم طبع هذا الكتاب عام ٢٠٠٥ طبعة منقحة على نفقة الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمى حاكم الشارقة، ونشرته دار النشر الألمانية Georg Olms Verlag فى مدينة هلدسهايم بجمهورية ألمانيا الاتحادية،

ويحمل رقمًا مفهرسًا فى مكتبة جامعة بون ٢٠٠٧ / ٨٣٣٠. وفى الجزء الثانى من هذا الكتاب تحدث بوركهارت عن مشاهداته فى مصر، حتى وفاته عام ١٨١٧.

أما الكتاب الثانى لبوركهارت فى مكتبة جامعة بون فعنوانه: ملاحظات عن البدو والوهابيين ، Bemerkung über die Beduinen und Wahaby ومطبوع أيضًا على نفقة الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمى، وهو من جزء واحد، لكنه يتكون من قسمين، يتحدث بوركهارت فى القسم الأول عن عادات وتقاليد البدو، وفى القسم الثانى يتحدث عن تاريخ الحركة الوهابية، وفى نهايته ملاحق تشمل المراسلات المتبادلة بين محمد على باشا وعبد الله بن سعود.

ولبوركهارت تقارير عديدة عن رحلاته إلى الشرق الأدنى كان يبعث بها بانتظام إلى "الجمعية الأفريقية البريطانية" التى كان مكلفًا من جانبها وبتمويل منها للقيام بهذه الرحلات. ومن الجدير بالذكر أن بوركهارت تواصل عام ١٨١٦ مع القنصل البريطانى فى القاهرة هنري سالت Henery salt من أن تنفيذ خطة نقل تمثال نصفى ضخم لرمسيس الثالث من مصر الى المتحف البريطانى فى لندن، وقد تم تنفيذ هذه الخطة تحت إشراف بوركهارت حتى استقر هذا التمثال فى المتحف البريطانى حتى اليوم. وهو نفس التمثال الذى عجز علماء الحملة الفرنسية، نظرًا لثقله، عن تنفيذ أوامر نابليون المشددة بضرورة نقله إلى باريس.

(٣٠) نفس المصدر السابق، ص ١٤٥.

(*) يبدو أن سيتزن تقرب من الشيخ حمزة دون غيره لأن هذا الشيخ من اليمن، فأراد أن يتعرف منه على أوضاع هذا البلد، التى هى وجهته التالية، وايضًا لكى يقلده تماما فى ممارسة شعائر الحج فى مكة، حتى لا يرتكب أى أخطاء تكشف أمره، وتفقده حينئذ حياته، وأيضًا لكى يرافقه فى الطريق إلى اليمن، ويحتمى بصحبته من مخاطر الطريق البحرى من جدة إليها.

(٣١) نفس المصدر السابق، ص ١٥٠.

(٣٢) نفس المصدر السابق، ص ١٥٥.

(٣٣) نفس المصدر السابق، ص ١٦٠.

(٣٤) مصدر سابق، ص ١١٥ .

Joseph Freiherr Von Hammer – Purgstall, Erinnerungen aus meinm Leben

(٣٥) نفس المصدر السابق، ص ١١٦.

(٣٦) نفس المصدر السابق .

(٣٧) نفس المصدر السابق، ص ١١٧.

(*) نحن لا نستبعد أن يكون سيتزن قد حاول ممارسة النشاط التجارى خلال فترة ترحاله فى اليمن لكى يمول إقامته بها، وأنه ربما اشترى بعض البضائع من تلك التى تصل بحرًا إلى ميناء المخا لكى يتكسب من بيعها للسكان داخل اليمن، ولذا خرج من ميناء المخا بهذه القافلة الكبيرة والمحملة بما اشتراه وشق طريقه إلى تعز وصنعاء.